



القسم الأول

طريق النبوة
والرسالة

من الرؤيا الصالحة إلى غار حراء

لأن حديثي هذا جاد كل الجد ، يستحسن أن يقرأه الإنسان ساكناً خالياً بنفسه يتملى تفاصيله ، فسندرس فيه كيف انتقل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من رجل من عامة أهل مكة إلى نبي مصطفى من الله سبحانه ، ثم إلى نبي مرسل حامل رسالة ربانية إلى الناس ، وسندرس فيه عن قرب مولد الإسلام مع تحول محمد من بشر سوى إلى بشر نبي ، ثم إلى بشر نبي مرسل بالقرآن إلى الناس .

والحادث على أهميته وتفرده في التاريخ لم يدرسه أحد حق درسه ، فليس لدينا فيما نملك من قصص الأنبياء والمرسلين قبل محمد - سواء في « العهد القديم » أو في كتابات أصحاب الأناجيل أو كتابات آباء الكنيسة المسيحية من بولس الرسول إلى القديس أوغسطين - رواية واحدة يوثق فيها نزول الوحي على واحد ممن سبق محمداً - صلوات الله عليه - من الأنبياء والمرسلين .

ومن أسف أن أحداً من كتاب اليهود لم يصف لنا كيف انتقل واحد من أنبيائهم من رجل عادي إلى نبي مرسل أو غير مرسل ،

فموسى عندهم ولد نبياً ، وكان نبياً وهو طفل ثم صبياً ثم شاباً، وهذا كلام لا يزيدنا بأمر « التنبية » علماً ، وكذلك الحال فى بقية من يذكر فى كتاباتهم ممن يسمونهم عظماء أنبياء بنى إسرائيل من أمثال حبقوق وحزقيال .

وأما المسيحيون فقد أبهموا أمر نبوة المسيح عيسى بن مريم؛ نتيجة لما أدخله على المسيحية بولس الرسول - وربما أثناسيوس المصرى - من تغييرات حاسمة ، ثم إن المسيح عيسى ابن مريم ولد للنبوة ، وتكلم فى المهد صبياً ، ومن ثم فإننا لا نجد فى سيرته تجربة « التنبية » وكيف تأتى وما يصاحبها من أحاسيس نفسية وتحولات روحية تحدث داخل من يصطفيه الله لهذا الأمر العظيم .

ومن ثم فإن نبينا محمداً - صلوات الله عليه - هو الوحيد فى التاريخ الذى نعلم نبأ نبوته العلم الصحيح ، ونرى خطوة خطوة كيف انتقل من حال إلى حال حتى صار نبياً ، وبماذا أحس وماذا عانى حتى انتقل من نبي إلى نبي مرسل أو نبي رسول .

ولابد من أن نذكر أن هذا الانتقال الذى يستثير نفس المتطلع لا يقتصر على اللحظة التى نزل فيها الوحي على محمد وهو

يتعبد في غار حراء ، فقد سبقته مراحل وتطورات انتقل معها محمد من حال إلى حال ، ومن حسن الحظ أن محمداً يعيننا على هذه الدراسة بما كان يقول ويفعل أثناء تنبئته ، فقد كان صريحاً واضحاً في حديثه عن كيف نزلت به التغيرات وهو لا يدري عنها قبل حدوثها شيئاً ؛ ومن ثم فقد كان الخوف والحيرة والقلق تنتابه حالاً بعد حال ، حتى استوثق آخر الأمر من أنها رسالة إلهية اختصه الله بها ، وبدأ يؤدي رسالته التي اختاره الله لها واثقاً من نفسه ، مؤمناً بأن الله سبحانه وتعالى معه يؤيده ويحفظه من الناس .

ولكى أصور لك حقيقة ما نبحت عنه في هذه الدراسة أروى لك ما يقوله أذيع كتب السيرة النبوية الحديثة عندنا ، وهو كتاب الدكتور محمد حسنين هيكل عن حياة محمد ﷺ قال : وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة ، فقال له اقرأ ، فأجاب مأخوذاً « ما أقرأ ؟ » فأحس أن الملك يخنقه ، ثم يرسله ويقول : اقرأ ، قال محمد ﷺ : ما أقرأ ؟ ، فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى ، ثم يرسله ويقول : اقرأ . قال محمد - وقد خاف أن يخنق مرة أخرى - : ماذا أقرأ ؟!

قال الملك : ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

عَلَّقِ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴿ فقرأها ، وانصرف الملك عنه ، وقد نقشت في قلبه .

هكذا يصف هيكل واقعة « التنبية » دون مناقشة ، فهل كان محمد نائماً عندما جاءه الملك ؟!

وهل كانت بيد الملك صحيفة ؟ وما شكل هذه الصحيفة ؟ وما صفة هذه اليد التي امتدت إليه بها ؟ ثم إذا كان محمد رسول الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب فكيف يأتيه الملك بصحيفة ؟ وهل قال محمد فعلاً : ماذا أقرأ ؟ وما المراد بهذا السؤال إذا كان لا يقرأ ؟ إن بعض الروايات الأخرى تقول : إن محمداً قال : ما أنا بقارئ ، وهذا أقرب إلى المعقول ، ثم ما معنى القراءة هنا ؟ أهى القراءة التي نعرفها أم التريدي والتلاوة ؟

كل هذه أسئلة لم يخطر ببال هيكل أن يقف عندها مع عظيم أهمية الوقوف هنا ، ومتعة التفكير في ذلك كله ، وهيكل معذور في ذلك ؛ فما كان بالمؤرخ ، ولا هو تهيأ لدرس التاريخ والتأليف فيه ، إنما هو كان أديباً صاحب أسلوب ، فصاغ السيرة في أسلوبه وعلى طريقته بعيداً جداً عن التاريخ ، وكذلك كان كل ما كتبه طه حسين والعقاد في السيرة ، فهي كتابات أدباء ذوى ملكات أدبية وقدرات ذهنية ، فكتبوا في السيرة والتاريخ قطعاً

من الأدب أو التأملات الشخصية ، وكتاباتهم كلها لذلك تدخل في باب الأدب ، ولا مدخل لها إلى التاريخ من أى باب .

ونقول الآن : إن التجربة التى مر بها محمد بن عبد الله وتحول بها من بشر إلى نبي تجربة طويلة ، تبدأ منذ اقترابه من بلوغه سن الأربعين ، تبدأ بتمهيدات وحالات مر بها محمد حالة بعد حالة .

وهذه الحالات إعداد نفسى لكى يتحمل الرسالة ؛ لأن « أمر النبوة ثقيل » - كما يقول ابن كثير - ولم ينته التحول بنزول الوحي فى غار حراء ، بل استمر التحول بعد ذلك خلال فترة الوحي ، أى : تأخرت عودته عن رسول الله حتى نهاية الفترة ونزول أول سورة المدثر التى أمر الله فيها نبيه بأن يقوم فينذر وربه فيكبر . وثيابه فيطهر . والرجز فيهجر . ولا يمن يستكثر، وهى مدلولات الآيات الأولى من سورة المدثر .

هنا استقر قلبه واطمأنت نفسه ، وعرف حقيقة ما مر به دن تجارب وما شعر به من أحاسيس ، واستوثق من أن الله - سبحانه - قد اختاره ليبلغ للناس رسالة كبرى ، فشرع فى الصدوع بما أمره الله سبحانه ، واتصلت بعد ذلك حلقات السيرة الشريفة .

على هذا الأساس من اعتبار عملية انتقال رسول الله ﷺ من بشر إلى بشر رسول عملية واحدة طويلة الأمد ، تبدأ من قبيل بلوغة الأربعين ، ولا تنتهي حتى يعلم محمد علم اليقين أنه نبي مرسل ، وأن هذا الذى يأتية هو ملك من السماء ، يحمل إليه رسالة ربه ليبلغها إلى الناس . وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة كبرى .

ذلك أن النصوص التى تروى لنا أحداث هذا التحول يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ، وكلها - وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب - مسندة إلى رواة ممن يوثقهم أهل الحديث ، ولا يجرحهم أو يضعفهم منهم إلا القليل ، وهذه الأحاديث نجدها عند الطبرى والبلاذرى واليعقوبى . ومن إليهم من الثقات ، ولكننا عند التدقيق والتحقيق نجد أن هؤلاء كلهم جماعون يروون كل ما يلقى إليهم دون نظر أو تأمل ، بل نجد محدثاً مؤرخاً متأخر الزمان هو أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري أنفذ من هؤلاء جميعاً بصيرة ؛ لأنه رجل يستعمل ذهنه ، والسيرة النبوية التى افتح بها كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » من أكبر السير قيمة رغم اختصارها ، وكذلك ما يورده ابن سيد الناس فى كتاب « عيون الأثر » .

ولكن أولى الناس بالثقة فى هذا الموقف هو البخارى ، محمد ابن إسماعيل ؛ فإن صحيحه حقاً أبو الصحاح وكتب السنن والمسائيد وكتب التاريخ فيما يتصل بسيرة الرسول ﷺ ؛ ولهذا فسنأخذ أقرب الأحاديث التى يرويها إلى المنطق التاريخى ، ونعتمد عليه أساساً ، ثم نضيف إلى تلك القاعدة السليمة ما نرى من شتى الأصول حتى تكتمل لدينا الصورة التى نريد أن نجليها للناس .

وإليك حديث البخارى الذى يرويه بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنها - وسنقسم الحديث إلى فقرات حتى نستطيع تحليل مادته التاريخية تحليلاً دقيقاً :

قالت عائشة - رضى الله عنها - :

١ - أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ - ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

٣ - حتى جاء الحق وهو فى غار حراء ، فجاهه الملك فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذني ، فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني
قال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني
فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ . .

فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقرأ
وَرَبِّكَ الْأَكْرَمَ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ .

٤ - فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على
خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني ! زملوني ! فزملوه حتى
ذهب عنه الروح .

٥ - فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل
الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين
على نوائب الحق .

٦ - فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد
ابن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ،
وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما

شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له
خديجة: يابن عم :

اسمع من ابن أخيك .

٧ - فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول
الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ،
ياليتنى فيها جذعاً ! ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرَجِيَّ هم ؟ قال : نعم !

لم يأت رجل قط بمثل ما جنت به إلا عودى ، وإن يدركنى
يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر
الوحي .

وبقية خبر ذلك الحادث الفاصل الجليل نجدها فى أحاديث
أخرى لرواة شتى أصحهم وأقربهم إلى المفهوم التاريخى هو ما
جاء فى صحيح البخارى ، ولكننا نؤثر أن نقف هنا وقفه طويلة
ندرس فيها ما حدث إلى هذا الحد .

نلاحظ أن كل ما ذكرناه مرتبط بما أسلفناه من أن محمداً
صلوات الله عليه - كان قبل أن يدخل فى مراحل النبوة قد اتجه

بقلبه ونفسه إلى البحث عن الحق أنفة من الأوثان ، وبصيرة منه بأنها عبث لا طائل وراءه ، أى أنه سار فى طريق من ذكرنا من الحنيفية دون أن يكون فى جملتهم ، إنما هو كان يبحث وحده عن ملة إبراهيم عليه السلام .

وهذا بدوره مرتبط أشد الارتباط بما كان محمد عليه طوال ما مضى من حياته كلها ، فقد وجهه الله - سبحانه - فى طريق الفضائل والكمالات ؛ لما سبق فى تقديره - سبحانه - من أنه مصطفىه للرسالة الكبرى ، فكان مثالاً فى الفضل والخير والعصمة من الزلل حتى تستقيم معه الرسالة .

ومن غريب الأمر أن محمداً نشأ فى حجر عبد المطلب ، وعبد المطلب هو الذى جمع مذاهب الوثنية الجاهلية كلها فى مذهب واحد يقول بأن لكل قبيلة أن تعبد الوثن الذى تريد كيف شاءت فى منازلها ، فإذا جاء موسم الحج حجت القبائل كلها إلى الكعبة ، فجعلت كل قبيلة صورة من وثنها حول الكعبة لتحج إليه مع بقية العرب ، وأحكم عبد المطلب نظام الحج ورتب أمره ، وجعله كله فى قریش وفق نظام وضعه لها ووفق فيه بين ميول القبائل جميعاً ، وسمى ذلك بدين عبد المطلب ، وهذا الدين الوثنى الذى ألفه عبد المطلب من وثنيات القبائل هو الذى وقف

أعداء الإسلام يدافعون عنه ، فكأن محمداً - صلوات الله عليه - كان عليه أن يهدم دين جده عبد المطلب ؛ ليحل محله دين الله أو دين محمد .

وهذه النشأة الطيبة والخلق الجميل الذى تميز به محمد كان جزءاً من عملية التنبية ، ولكن ذلك كله هو المقدمات البعيدة. والذى يهمنا الآن أن ننظر فى المراحل الحاسمة من الانتقال إلى النبوة كما رواها البخارى بإسناده الذى ذكرناه، وسنورد التفصيل على نفس نسق أرقام فقرات الحديث .

١ - فى حديث عائشة أن أول ما بُدئَ به محمد من الوحي الرؤيا الصالحة ، وتسمى أحياناً بالرؤيا الصادقة ، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتطرب لها الروح .

فكان أثرها فى نفسه شبيهاً بحالة الإشراق التى يتحدث عنها الصوفية ، وربما بدأت هذه الحالة عند الرسول عندما بلغ التاسعة والثلاثين وعلى أثر خلواته فى غار حراء أو فى البرية بحثاً عن الحق ، ولا يمكننا أن نقول : إن محمداً بدأ بالخلوة فى غار حراء شهراً من كل سنة مدة طويلة قبل أن يبلغ الأربعين؛ فقد كان رسول الله يعمل منذ ضرب فى مداخل الشباب بالتجارة، وظل يعمل فيها حتى صار نبياً ، وقد روى البلاذرى أن محمداً

بعد أن جاءت الرسالة وبدأ يدعو لها جاءه رجل يكلمه عن مال كان له - أى : لمحمد عنده - فقال محمد شيئاً فيه معنى أن ذلك الأمر والمال لم يعد يعنيه .

ولسنا نعلم شيئاً عن طبيعة هذه الرؤى ، ولا نريد هنا أن نذكر شيئاً مما ذكره المتأخرون من أهل السيرة من أمثال الزرقانى فى كتابه المسمى «شرح المواهب اللدنية» ، والمواهب اللدنية شرح لسيرة ابن هشام ، وكتاب الزرقانى شرح على شرح ابن هشام ، وسيرة ابن هشام نفسها صياغة شخصية صنعها محمد بن عبد الملك بن هشام لسيرة النبى التى وضعها محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى ، وقد بَدَلَ فيها وَعَيَّرَ وحذف وأضاف ، ومن هنا فنحن نعتبر سيرة ابن اسحاق شيئاً وسيرة ابن هشام شيئاً آخر ، ونحن اليوم فى تأريخنا للسيرة نعتمد على الصحاح والمسانيد وكتب السنن بعد القرآن الكريم ، ثم على ابن إسحاق والبلاذرى والواقدى واليعقوبى ومن فى طبقتهم وأصالتهم . ولا نكاد نعتمد على ابن هشام إلا قليلاً جداً.

هذه الرؤى الجميلة التى كان محمد يصحو منها منشرح الصدر ، متفتح النفس لكل ما فى الحياة من جمال - كانت مرحلة إشراق روحى دخل فيها محمد ليبتعد عن الحياة ويرتفع

عن صفائرها ، دون أن ينفصل عن الناس ، وهى تمهيد طبيعى للانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل النبوة ، وتعبير « فلق الصبح » هنا يعيننا على تصورها ؛ فإن الإنسان منا إذا قضى ليلة هادئة نام فيها نوماً هنيئاً وأصبح فنظر إلى حديقة ذات أشجار وخضرة وزهور أحس فى نفسه فعلاً كأن نفسه تمتلئ بنور صاف يشبه الفلق ، وهو ضياء الصبح إذا انبلج ، ولفظ (الفلق) نفسه قرأنى ؛ فقد ورد فى مطلع السورة الثالثة عشرة بعد المائة من القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ويفسر المفسرون الفلق هنا بأن الله - سبحانه وتعالى - فلق ظلمة العدم بنور الإيمان ، وهذا النور هو الذى كان يملأ نفس محمد عندما يصحو بعد رؤية من هذه الرؤى الصالحة .

٢ - ثم حُبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن يحس محمد برغبة فى الخلو بنفسه ؛ لأنه فى هذه الحالة من الإشراق النفسى والبهجة الروحانية يجب أن يخلو إلى نفسه ؛ ليستمتع بهذه الحالة ، ومحى الدين بن عربى فى الفتوحات المكية و « ترجمان الأشواق » يتحدث عن حنين من تشرق نفسه بنور الله إلى

الخلوة والبعد عن الناس ، ومادام الأمر أمر نبوة قادمة فلا يتفق مع جلالها أن يكون محمد منصرفاً إلى شئون المعاش مخالفاً للناس ، ثم يطرقه الوحي بغتة وسط الخلق ، أو وهو خال في بيته مع أهله من زوج أو ولد .

وقد كان محمد يعرف هذه الخلوة في البرية أو في غار من غيران الجبال حول مكة ، فقد كان يفعل ذلك عندما اتجهت نفسه إلى البحث عن الحق وطلب الحنيفية ملة إبراهيم .

ولكن الخلوة في الجبل أصبحت الآن خطوة من خطوات الدخول في النبوة ، ومن هنا فقد كان أساسياً أن تكون لفترات طويلة ؛ لأن محمداً هنا يبتعد لبعض الوقت عن البشر ؛ ليتم تحوله الروحي ويتلقى الرسالة ، ثم يعود إلى الناس نبياً مرسلأ ؛ لكي يدعوهم للدخول فيما ألقى الله في صدره من الإيمان .

ولفظ (التحنث) هنا لفظ جديد ، يفسره بعض مؤرخي السيرة بأنه تعبد الليالي ذوات العدد « أى : الليالي المتصلة » ويفسره آخرون بأنه التبرر ، وهو لفظ يراد به تصفية النفس بأعمال البر ، وفي هذا المعنى يقول الطبرى رواية عن ابن حميد:

« فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين » وقد كان غير محمد من الحنيفية الباحثين في الحق يفعلون ذلك ، ولكن لا بد أن يكون هناك معنى ثانٍ للتحنث أو التبرر ؛ لأن التحنث هو الانفراد للتعبد ، فبماذا كان محمد يتعبد إذ ذاك ؟ وإذا كان التحنث هو التبرر ، والتبرر هو إطعام المساكين ، فإن المساكين لا يسألون بالليل ، فلماذا يقضى محمد هناك الليالي المتوالية ؟

ثم من هم أولئك المساكين الذين كان محمد يطعمهم ؟ إن البرية شمال شرقي مكة حيث جبل حراء كما نراها اليوم من أشد ما نعرفه محلاً ؛ فلا شجرة ولا عشب ولا ماء ، ولكن الثابت أن هذه النواحي كلها في أيام الرسول كانت خضراء معشوشبة فيها نبات ورعاة وطيور وأشجار ، لم تكن بالغة الخضرة بل كانت أرض حشائش ، ونحن الآن في نهايات العصر الثلجي الثالث ، وقد اشتد الجفاف وأمحلت الصحارى .

ولكن قبل ألف وأربعمائة سنة كانت هناك بقية من الخضرة الغزيرة التي كانت تغطي نطاق الصحارى في نصف الكرة الشمالي بعد ذوبان الثلوج وانحسارها إلى الشمال ، وكان محمد إذا خرج إلى حراء وما حوله لم يخرج إلى أرض قاحلة

خالية كئيبة ، بل إلى أرض معشوشبة ذات خضرة ومراع قليلة
ورعاة ، وأولئك هم المساكين الذين كان محمد والحنيفية أيضاً
يطعمونهم ويأنسون بهم ، ويتبررون بالإحسان إليهم فى تلك
الخلوات .

* * *

قبيل نزول الوحي

فى حديثنا الماضى وصلنا بمحمد بن عبد الله ﷺ إلى غار حراء ، وذلك فى تتبعنا انتقاله من بشرٍ إلى بشرٍ نبي فَبَشَرَ نبي مرسل ، معتمدين فى ذلك أساساً على حديث محمد بن إسماعيل البخارى عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة عن عائشة أم المؤمنين (وهى خالته) .

وبلغنا فى دراستنا لهذا الحديث إلى نهاية الفقرة الثانية عن إخلاد محمد إلى الانفراد بنفسه فى غار حراء شمال شرقى مكة للتحنث الذى يفسره أصحاب السيرة واللغة بأنه التبرر ، أى القيام بأعمال البر ، وقلنا : إن هذا التفسير غير مقنع ، حقاً .. إن محمداً ﷺ كان يطعم من يمر به من السؤال ، وكذلك كان يفعل الحنفاء الباحثون عن ملة إبراهيم قبله وفى زمانه ، ولكن من المؤكد أن محمداً لم يكن يخرج إلى الغار لهذا وحده .

وقد عثرت وأنا اقرأ سورة النحل من الكتاب العزيز على آية تفسر لنا التحنث تفسيراً جديداً يعيننا على فهم هذه المرحلة من الحياة المحمدية أكثر مما نفهمها إلى الآن ، وذلك حيث يقول الله -

سبحانه - فى الآية العشرين بعد المائة من سورة النحل : ﴿ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠)
إذن فقد كان تعبد إبراهيم - عليه السلام - لله هو القنوت ،
والقنوت : هو التعبد لله وذكره فى صمت ، وما زال الصالحون
عدنا يقننون بعد الصلاة ، والشاعر الأندلسى لسان الدين بن
الخطيب فى مقارنته لسكون الموت بعد صخب الحياة يقول :

كجهر الصلاة تلاه القنوت

إذن فالتحنث هو القنوت ، والقنوت هو صلاة إبراهيم -
عليه السلام - ومن اتبعه فى ملته ومنهم الحنفاء ، وهذا
التفسير يحل لنا مشكلة طالما شغلت بالنا ، وهى مشكلة عبادة
محمد ﷺ قبل أن يتنزل عليه القرآن ، وأى شىء كانت .

وهذا التحنث أو القنوت لله فى الخلوة بعيداً عن الناس كان
المرحلة الثانية من مراحل انتقال محمد من البشرية إلى النبوة
فالرسالة ، وهى مرحلة لم يكن منها بد لذلك التحول العظيم
بالصورة التى قدرها الله - سبحانه - فى علمه ، ولو شاء الله أن
ينقل محمداً من البشرية إلى النبوة بكلمة واحدة منه لفعل ، بل
لو أنه شاء - سبحانه - أن يولد محمد نبياً كما ولد موسى
وعيسى أنبياء لفعل ، ولكن العبرة الكبرى فى البعثة المحمدية
كانت الانتقال من البشرية إلى النبوة فالرسالة ، مع احتفاظ

محمد ببشريته كاملة ؛ ليكون بشراً رسولاً حقاً ؛ ليكون ببشريته مع الناس ومن الناس ، يسعد ويتألم ، ويجتهد ويشقى ، ويعانى ، ويوفق أو لا يوفق فى بعض ما يسعى إليه ، ويحقق رسالته الكبرى بوسائل البشر ؛ فتكون حياته أسوة ، ويكون جهاده قدوة للناس ، وتكون نبوته وما يبلغ للناس من رسالات ربه نوراً إلهياً يضىء للناس من حوله ومن بعده ، فنتم بذلك الرسالة المحمدية على أكمل الوجوه .

وقد كشفنا فى أثناء هذا التحقيق عن حقيقة تغيب عن أذهان الكثيرين من الدارسين ، وهى أن الظروف الجغرافية والمناخية فى مناطق الصحارى فى نصف الكرة الشمالى (وفىها جزيرة العرب كلها) كانت تختلف قبل أربعة عشر قرناً عما هى عليه اليوم ، فقد كانت جزيرة العرب كلها ، وصحراء إفريقية الكبرى ، وما يحاذيها على مدار الأرض مناطق أعشاب قصيرة تتخللها الأشجار الكبيرة حيناً والصغيرة أحياناً ، وكانت هذه النباتات تنمو فى تربة سميكة تكونت من رواسب المياه عند ذوبان الثلوج وانسحابها إلى الشمال فى نهايات العصر الثالث، وكانت المياه موجودة إما فى صورة مساليل صغيرة أو وديان تحمل الماء فى فصل الشتاء وتجف فى الصيف ، وإما فى صورة آبار قريبة العمق أو بعيدته ، وفى وصف أبى عبيد البكرى

لجزيرة العرب ، وهو وصف يعتمد على ما كتبه أوائل الجغرافيين العرب الذين كتبوا في القرنين الهجريين الثاني والثالث من أمثال السكوني والحربي وعرام بن الأصبغ ، نجد ذكراً كثيراً لمياه جزيرة العرب فى كل موضع ، بل يقول : « إن الماء كان يخرج فيها بأدنى شىء » وفى تفاصيل البعث والسرايا والغزوات أيام الرسول - صلوات الله عليه - نجد أن الناس كانوا يسيرون فى أراضي أعشاب وأشجار وافرة المياه، كثيرة حيوان الصيد من غزلان ووعول وحمير وحشية ، وقد جفت هذه التربة وتفتتت بفعل الجفاف المستمر ، وأذرت بها الرياح ، وانكشفت الصخور وتعرت الأرض ، وتحولت حول مكة خاصة إلى هذا المحل الموحش الذى هى عليه اليوم ، ومن هنا فإن غار حراء لم يكن بالارتفاع الذى هو عليه اليوم ، ولا كان الصعود إليه عسيراً كما نراه اليوم .

ومحمد - صلوات الله عليه - كان إذا خرج إلى غار حراء لم يكن يمر فى طريق موحش ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور ، لا عمران فيه ولا يأوى إليه الناس ، ولا يستأنسون به ، كما قال شيخنا المرحوم محمد أبو زهرة فى السيرة التقليدية التى كتبها لرسول الله بعنوان «خاتم النبيين» إنما كان الرسول يسير فى طريق لين سهل فيه خضرة قليلة

وشجر وبعض ماء ، وكان إذا وصل إلى حراء لم يشق عليه الصعود إليه كما يشق علينا اليوم ، وكان إذا جلس في الغار لم تقع عينه على محل موحش يغلب عليه سواد الحجارة البازلتية الذى يملأ النفس كآبة إذا نحن أطلنا النظر إليه من داخل الغار، إنما كانت عينه تجول في فضاء عامر بعض الشيء بالحياة والخضرة والشجر ، فتستريح إليه نفسه ، ويقبل على ما كان ينصرف إليه من تحنث أو قنوت .

والآن نأتى إلى الغار ونزول الوحي على محمد فيه !

فماذا حدث فى الغار ؟! ..

الخبر كما يرويه الدكتور هيكل فى كتابه عن محمد ﷺ يقول: «وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك فى يده صحيفة ، فقال له: اقرأ ، فأجاب مأخوذاً : ما أقرأ ؟ .. إلى آخر ذلك الحديث » .

والخبر على هذه الصورة يضيع أعظم معانى الوحي والبعث المحمدى ، فهو يجعل الأمر كله رؤياً أو مناماً ، مع أن العبرة كلها فى أن الوحي نزل على محمد وهو فى تمام صحوه ويقظته ؛ لأن المنامات يستوى فيها كل الناس ؛ لأنها أضغاث أحلام بلا ضابط . ثم ما شأن هذه الصحيفة التى أتى بها الملك

ليقرئها لمحمد .. ومحمد أميُّ لا يقرأ ولا يكتب ؟ . وهذا قطعاً ليس كلام هيكل ، إنما هو كلام إميل درمنجن . وهو مستشرق فرنسي معتدل ، كتب كتاباً مقبولاً بعض الشيء ، فقرأه هيكل وأعجبه ، وبدأ ينشره ملخصاً في « السياسة الأسبوعية » ثم استهوته السيرة ، فمازال يعمل حتى كتب كتابه المعروف الذائع عن حياة محمد ، وقد تخلص بعض الشيء من إسهار درمنجن ، ولكنه ظل متأثراً به في الطريقة والأسلوب . ودرمنجن وغالبية المستشرقين يعجبهم أن يقولوا : إن نزول الوحي على محمد إنما كان رؤياً رآها وهو نائم !! وما كانت قطُّ برؤياً نائم ، إنما شهود رجل في آتم حالات الصحو والوعي ، وقد تمهدت نفسه لتلقيها بالرؤى الصالحة وإشراق النفس بنور الله أثناء الخلوة حول جبل حراء ، وفي الغار ، ومن الثابت في بعض النصوص أن محمداً لم يكن يلزم الغار معظم الوقت ، بل كان أحياناً يتجول في منطقة حراء ، فقد روى محمد بن إسحاق المطلبى عن عبد الملك بن عبيد الله بن العلاء بن حارثة الثقفي ، وكان واعية عن بعض أهل العلم - أن رسول الله ﷺ حين أراد الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته بعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : « السلام عليك يا رسول الله » فيلتفت

حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ،
فمكث ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه
جبريل بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء في شهر رمضان .

وهذا كذلك خبر لا نستطيع قبوله في جملته ؛ لأن الشجر
والحجارة إذا كانت تتأديه قبل مشهد الغار بأنه رسول الله فما
معنى فزعه وخوفه على نفسه بعد أن نزل عليه الملك أول مرة ؟
ولكن الذى يعيننا منه أن محمداً كان يتمشى فى الخلاء
والفلاة ، يتأمل ويتفكر ، ثم يصعد إلى الغار : ليجلس فيه إذا
شاء .

ومسألة المنام هذه التى ذكرها درمنجن وهيكلم من بعده لم
تختلق اختلاقاً ، إنما هى تستند إلى أخبار رواها ابن هشام
وغيره دون تحقيق ، منها خبر يرويه عبد الله بن الزبير يقول
فيه : حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم
العباد بها جاءه جبريل بأمر الله ، قال رسول الله ﷺ : جاءنى
وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ .. ثم يقول : ثم
انتهى - أى : الملك - فأنصرف عنى . وهببت من نومى ، فكانما
كتب فى قلبى كتاباً .. وهذا أيضاً خبر غير مقبول فى جملته
وتفصيله ، ولا يثبت لأدنى مقاييس النقد التاريخى ، ولكن

محمد بن إسحاق رواه دون تفكير ، ونقله ابن هشام دون تدبر ،
وتلقفه المستشرقون فجعلوا منه حجة علينا ، ثم جاء هيكل
فرواه دون نظر ، فالحق بالسيرة بذلك ضرراً بليغاً .

وقد حاول الحافظ ابن كثير أن يوفق بين حديثي النوم
واليقظة فقال : إن النبي ﷺ شهد هذا المشهد مرتين : الأولى فى
المنام ، والثانية فى اليقظة ، وأضاف : وقد جاء مصرحاً بذلك
فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى أنه رأى ذلك فى المنام ،
ثم جاءه الملك فى اليقظة .

ولا أدرى من أين أتى موسى بن عقبة بذلك ، حقاً إن موسى
ابن عقبة كان حجة فى المغازى ، وقد روى عن مالك بن أنس أنه
قال : من طلب المغازى فعليه بموسى بن عقبة ؛ فهو شيخها ،
ولكن المغازى جزء من السيرة ، وليس من الضرورى أن يكون
شيخ المغازى شيخ السيرة ، فقد كان الواقدى شيخاً كبيراً من
شيوخ المغازى ، ولكنه لم يكن فى السيرة بكاملها ندا لابن
إسحاق .

وأراد أبو نعيم الأصفهانى فى « دلائل النبوة » أن يؤكد
القول بالمشهدين : مشهد النوم ، ومشهد اليقظة ، فقال : إن هذا
شأن الأنبياء جميعاً يأتيهم الوحي ابتداء فى المنام حتى إذا

تهيئوا للقاء الوحي عياناً جاء إليهم ، وأضاف : فقد نقل عن
علقمة بن قيس أنه قال : إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام
حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي .

ولا ندرى من أين أتى أبو نعيم أو علقمة بن قيس بهذا
الكلام ، فهذه معلوماتنا عن الأنبياء ، وما أقلها عند التمحيص
باستثناء ما ورد فى القرآن الكريم بين أيدينا ، وليس فيها خبر
عن نبي واحد أتاه الوحي أولاً فى النوم ثم اليقظة ، بل ليس
لدينا خبر واحد عن كيفية نزول الوحي على أى نبي ما عدا
محمدأ - صلوات الله عليه - وقد عَلَّمْنَا ذلك بما قلناه من أن
محمدأ هو النبي المرسل الوحيد الذى انتقل ببشريته إلى نبوته
فرسالته مرحلة بعد مرحلة ؛ ليكون فى نفس الوقت بشراً
ورسولاً أو بشراً رسولاً كما ورد فى القرآن ، ولبشرية محمد
دورها ، ولبوته دورها فى بناء المسلم أو جماعة المسلمين .

ثم يجيء شيخنا محمد أبو زهرة فيحدثنا عن شىء يسميه
رؤية اليقظة ، أى : أحلام اليقظة كما نقول ، وأحلام اليقظة
نعرفها جميعاً ، ولكنها ليست مما يناسب حادثاً ضخماً غير
مجرى التاريخ مثل البعثة المحمدية .

وخلاصة ما نستطيع قوله فى هذا المقام هو أن حديث

البخارى الذى نعتمده هنا أساساً ؛ فهو القول الفصل فى الموضوع ، وأن نزول الوحي على محمد أول مرة فى غار حراء حدث وهو فى تمام وعيه ويقظته ، وهذا هو القول المناسب لهذا الموقف العظيم .

ويذكر الطبرى عن سنده ابن حميد ، وهذا يروى عن ابن قتادة ، وهو عبيد بن عمر الليثى : أن محمداً كان يخرج إلى غار حراء فى شهر رمضان الذى نزل عليه الوحي فيه ومعه أهله .

والمراد بأهله هنا السيدة خديجة - رضى الله عنها - والمراد هنا أن السيدة خديجة كانت تخرج معه أحياناً فتقضى معه اليوم وهو منصرف إلى تحنثه أو قنوته ، وربما أوصلته إلى الغار وتركت معه زاده من الماء والطعام ثم عادت إلى بيتها لتنتظر عودته ، ويفهم من حديث البخارى الذى روينا أنه ﷺ كان يتزود لأيام ، فإذا نفذ زاده عاد إلى بيته ليتزود لأيام أخرى .

ويبدو أن ما يذكره البخارى هنا من التزود لعدة أيام كان يحدث فى أوائل رمضان ، وأن محمداً كان يعود إلى بيته فى نهاية كل يوم عندما اقترب نزول الوحي عليه ، ودليلنا على ذلك أن محمداً فى اليوم الذى نزل عليه الوحي فيه أول مرة استأخر

فى العودة إلى بىته مع المغىب حتى قلىقت علیه السىة خدیجة؁ فأرسلت من یتعجله أو ىستجلى سبب تأخره؁ قال الطبرى متابعا لروایة خبر نزول الوحى عن ابن قتادة قال : والمراد هنا محمد ﷺ بعد أن نزل علیه الوحى؁ وخرج من الغار فإذا جبریل فى صورة رجل صافا قدمیه فى أفق السماء یقول : یا محمد؁ أنت رسول الله وأنا جبرئیل . قال : فوقفف أنظر إلیه؁ وشغلنى ذلك عما أردت؁ فما أتقدم وما أتأخر؁ وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأیته كذلك؁ فمأزلت واقفا ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خدیجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا إلیها وأنا واقف فى مكانى؁ ثم انصرف عنى وانصرفف إلی أهلى حتى أتیت خدیجة فجلست إلی فخذها؁ فقالت : یا أبا القاسم؁ أین كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلی !!

وهنا نجد ابن قتادة یخلط فى روایة الأحداث؁ فإن جبریل لو كان ظهر لمحمد فى أفق السماء وقال له : یا محمد؁ أنت رسول الله وأنا جبرئیل وهو عائد من الغار لما كان ثمة ما یدعو لفرع محمد .. وخوفه على نفسه؁ وإسراع خدیجة به إلی ورقة ثم إن محمدا عندما قص ما حدث له على ورقة لم یشر إلی

ظهور جبريل له في أفق السماء ، والحقيقة أن ذلك حدث فعلاً ، ولكن في نهاية فترة الوحي عندما شاء الله أن يتأكد محمد من أنه نبي مرسل من الله حقاً ؛ لتنتهي مخاوفه ويشرع في أداء رسالته .

ولكن الذي يعيننا هنا هو قلق خديجة على محمد لتأخره في العودة إلى بيته ، فهذا يدل على شيئين في غاية الأهمية ، الأول : هو أن محمداً عندما اقترب نزول الوحي عليه كان يعود إلى بيته في نهاية كل يوم ، وإذا لم يكن يعود إلى بيته قبل المغيب فلماذا قلقت عليه السيدة خديجة وأرسلت في طلبه ؟ والأمر الثاني : هو أن الوحي نزل عليه بعد ظهر اليوم الذي بعث فيه ؛ ولهذا تأخر في العودة ، ولو أن الوحي نزل عليه صباحاً لأسرع إلى بيته مع الظهر مثلاً ، وما كان هناك ما يدعو قط إلى قلق خديجة عليه .

أما أن يكون الوحي قد أتاه ليلاً فمستحيل ؛ لأن المأثور عندنا أن محمداً ﷺ بعد أن أقرأه الملك الآيات الأولى من سورة العلق ظل لحظات واجفاً ، ثم انطلق إلى بيته مسرعاً ، وهذا ظاهر من حديث البخارى ، فقد جاء في الفقرة الرابعة من ذلك الحديث : فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على

خديجة بنت خويلد فقال : « زملوني .. زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ومثل هذا لا يحدث في سواد الليل ، وإلا لكان الوقع على محمد أولاً ثم على خديجة ثانياً شديداً جداً .

ولابد أن نلاحظ هنا أن السيدة خديجة - رضى الله عنها - لابد أن تكون قد أحست أن شيئاً عظيماً سيحدث لزوجها ، فليس من العادى أن يخرج الرجل إلى البرية شهراً كاملاً دون أن ترى زوجه فى ذلك شيئاً يستدعى السؤال والاستفهام، وأبسط ما كنا نتوقعه أن تسأله عن حقيقة ما كان يحس به ، وليس فى هذا السؤال ما يقع من محمد موقع الاستغراب أو الإنكار ، فهذه زوجه الوفية وأقرب الناس إلى نفسه ، فإذا سأله كان ذلك محبة منها وعطفاً ، ولكن خديجة لم تسأل ولم تتعجب .

إنها هى كانت تفعل ما يطلبه منها دون سؤال ، كأنها كانت تشعر بأنه فى حاجة إلى الخلوة بنفسه ، وكأنها كانت تعرف : لماذا يريد أن يخلو بنفسه ؛ ولهذا أيضاً كانت ترافقه فى ذهابه إلى الغار ، فإما بقيت معه وإما عادت لتنتظر أوبته ، وكل ذلك كان تقديراً من الله - سبحانه - لأن محمداً إذا كان الله قد هياه لتلقى الوحي فلا بد أن يكون قد هيا خديجة أيضاً لتلقى محمد بعد أن جاءه الوحي وأتاهم خائفاً يقول : زملوني . فأسرعت

وزملته، حتى إذا ذهب عنه الروع وقص عليها الخبر لم تنزعج له ، ولا هي شكت فيه ، إنما هي صدقته وقالت كلاماً جميلاً نجده في حديث البخارى ، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ، لا لكي ترى إذا كان مثل هذا الأمر ممكناً أو غيرممکن ، بل لكي تعرف كنهه وما وراءه .

أما تحديد اليوم الذى حدث فيه نزول الوحي فمطلب عسير ولا داعى لأن نقف عند ما يروى البراء بن عازب من أنه ﷺ بعث وله يومئذ أربعون سنة ويوم ، فهذا تكلف لا طائل وراءه ؛ لأنه قائم على ما ورد فى القرآن من أن محمداً ﷺ بعث بعد أن قضى مع قومه عمراً وتحديد العمر بأربعين سنة ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس الآية ١٦) .

ولا معنى كذلك لأن نأخذ بما يقوله محمد بن موسى الخوارزمى الفلكى من أن محمداً بعث يوم الاثنين لثمان خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، فإن المسألة هنا ليست مسألة فلك ، فمن الثابت عندنا الآن أن عام الفيل لم يكن عام مولد الرسول محمد ﷺ ، فقد كان عام الفيل وعبد المطلب فى شبابه ، وولد رسول الله وعبد المطلب شيخ ،

فبين عام الفيل ومولد الرسول ما لا يقل عن ثلاثين سنة ، ثم من أين للخوارزمي أن يعلم أن يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول سنة ٤١ لعام الفيل هذا كان يوم اثنين . وإذا كنا لا نعلم متى كان عام الفيل على وجه التحديد فكيف نعلم أن التاسع من ربيع الأول منه كان يوم اثنين ؟

هنا نلتزم حدود ما قاله البخارى ، فهو لم يحدد يوماً ولا تاريخاً ، ولكن جمهور المسلمين على أن البعث كان فى شهر رمضان بعد بلوغ محمد الأربعين سنة من عمره ، وأنه كان فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأن القرآن أنزلت أولى آياته على محمد فى ليلة القدر ، وليلة القدر لم يحددها أحد ، إنما قال رسول الله ﷺ : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان » ونحن فى هذه المسائل عند الثابت من حديث المصطفى صلوات الله عليه .

ماذا حدث في الغار . . ؟

نحن متابعون في هذه الدراسة لحديث البخارى الذى يرويه بسنده عن هشام بن عروة عن ابيه عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين ، الذى أتينا بنصه فى الحديث السابق مقسماً إلى فقرات ؛ وذلك لما تبين لنا من اتساقه وتكامله وبعده عن الإضافات والتصورات التى دخلت على السيرة النبوية على طول الزمن ، ومسَّ بعضها جوهر البعثة المحمدية .

كما رأينا فى حديث عبد الله بن الزبير الذى أورده أبو محمد عبد الملك بن هشام دون تحقيق ولا تدقيق وقال فيه : إن أول لقاء لمحمد ﷺ مع الوحي كان فى النوم ، ورأينا كيف أخذ هذا الخبر محمد حسين هيكل وأورده فى « حياة محمد » لا بلفظه الذى رواه ابن هشام ، بل مترجماً إياه عن أميل درمنجم .

ورأينا كيف أن هذا القول بأن لقاء محمد ﷺ أول مرة كان رؤيا رآها وهو نائم - يضيع العبرة الكبرى من المبعث المحمدى؛ لأن هذه العبرة تكمن فى أن هذا اللقاء وقع فى يقظة محمد ووعيه الكامل ، وبهذا وحده يكون المشهد حقيقة ؛ لأن الأحلام

والرؤى ليست حقائق ، إنما هي أضغاث يحس بها النائم ، وتتلاشى بعد صحوه ، أما المشاهدة الواعية فهي الحقيقة التي يعول عليها ، وهى سندنا فى القول بأن محمداً مرّ خلال مراحل انتقاله من البشرية إلى النبوة وهو صاح واع لكل ما يمرّ به ، فعرف الخوف والشك والقلق واليأس ، ثم الأمل والتصديق والإيمان بصحة ما رآه ومعناه ومنغزاه ، وانتقل بذلك ببشريته كاملة إلى نبوته فرسالته ، فكان كما جاء فى القرآن الكريم على لسان محمد فى سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (الإسراء : ٩٣) ، فكانت بشريته أسوة وقدوة للناس فى شئون المعاش ، وكانت نبوته ورسالته هدياً للناس فى شئون المعاش والمعاد .

ونواصل الآن الدراسة متابعين حديث أم المؤمنين عائشة الذى أسلفنا نصه .

تقول الفقرة الثالثة من ذلك الحديث :

« حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » فجاءه الملك فقال :

اقرأ

قال : قلت : ما أنا بقارئ

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ،
قال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى
فقال : اقرأ

فقلت : ما أنا بقارئ

فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى

فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) ﴾ (العلق : ١ - ٤) .

هذا - فى أدق صورة وأوجزها - وصف أعظم مشهد فى
تاريخ البشر ، إنه مشهد ميلاد محمد النبى ، مشهد ميلاد
الإسلام .

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا هو الوصف الوحيد فى التاريخ
لنزول الوحي الإلهى على إنسان من البشر ، وانتقاله بذلك إلى
مرتبة النبوة ، وهو من هذه الناحية مشهد فريد فى بابهِ فى
تاريخ البشر ؛ ومن ثم فهو جدير بنا أن ندرس كل لفظ أو
ظاهرة فيه على مهل .

والمشهد - كما قلنا - لا بدّ قد حدث قبيل المغيب ، بين العصر ومغيب الشمس كما حققنا فيما سلف ، وحدث ذلك فى يوم كان الرسول فى الغار وحده ليس معه أهله ، وفى ذلك اليوم كان المفروض أن يعود محمد فى نهايته إلى بيته .

ولكل حقيقة من هذه معناها ، فلم يكن من الممكن أن يقع هذا المشهد لمحمد ومعه أهله ، أى : زوجته أم المؤمنين خديجة ؛ لأنه كان لا بد أن يشهد هذا اللقاء وهو وحده حتى يعانى ما عانى ، وهذه المعاناة فى ذاتها جزء من المعجزة المحمدية ؛ لأنها محنة مرّ بها محمد وهو فى كامل إنسانيته ، وهو هنا يختلف عن إبراهيم - عليه السلام - الذى نشأ وكبر وهو واع إلى أن الله - سبحانه وتعالى - معه ، وعندما ألقى فى النار كان يعرف أن النار ستكون برداً وسلاماً عليه .

ويختلف عن موسى الذى رعته العناية الإلهية قبل مولده وبعد مولده، فلما شبّ وضرب فى مداخل الشباب كان يعرف أنه نبي ، وكان يعرف عندما لقى السحرة فى مجلس فرعون أنه سيأتى بمعجزة تبطل سحرهم مهما بلغ .

ويختلف عن عيسى بن مريم الذى كَلّم الناس وهو فى المهد صبياً ، وقد سمع محمد صوت الملك يقول له : اقرأ ، دون أن يرى

شيئاً ، وقد أخذ بهذا الصوت الذى جاءه من حيث لا يعلم ،
ولكنه سمعه واعياً كل الوعى : فقال : ما أقرأ ؟ أى : ماذا أقرأ؟
فأخذه الملك فغطه حتى بلغ منه الجهد .

ولفظ « غط » هنا يستوقف النظر !

إن حسين هيكل يترجمه بقوله : فأحس كأن الملك يخنقه ثم
يرسله ، وهو كلام لا معنى له ؛ إذ كيف يحس الإنسان أن الملك
يخنقه ، وهل كان محمد يعرف أن صاحب هذا الصوت ملك ؟

فى لسان العرب تقرأ : غطه فى الماء يغطه ويغطه (بضم
الغين وفتحها) غطا : غطسه وغمسه ومقله وغوصه فيه
(بتشديد الواو وفتحها) وانغط فى الماء انغطاطاً : إذا انقمس
فيه (بالقاف) . وفى حديث الوحى : فأخذنى جبريل فغطنى ،
الغط : العصر الشديد والكبس ، ومنه الغط فى الماء : الغوص .
قيل : إنما غطه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئاً .

وفى صورة أخرى من هذا الخبر نقرأ « فغتنى به حتى
ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى » .

وفى تفسير « غت » نقرأ فى لسان العرب : وفى حديث
المبعث : فأخذنى جبريل فغتنى ، والغت والغط سواء . كأنه
أراد : عصرنى عسراً شديداً حتى وجدت منه المشقة ، كما تجد

من يغمس فى الماء (مبنى للمجهول) قهراً ، وغتته : خنقه ، يغته غتًا : عصر حلقة نفساً (بفتح النون والفاء) أو نفسين أو أكثر من ذلك ، وغته فى الماء يغته غتًا : غطسه .

أى أن غطنى له معنى غتتى .

ومن الصعب أن نتصور أن الملك - ونحن لا نعرف إلى الآن ، حسب حديث البخارى إن كان هذا الملك جبريل أو غيره - قد أخذ محمداً وعصره حتى شعر بالاختناق كأنه يغطس فى الماء . حتى يظن أنه الموت ، كما جاء فى روايات أخرى ، فيكون الذى حدث هو شعور محمد بروح شديد ، أحس معه كأنه يختنق . وشيئاً فشيئاً زايه الرووع وانطلق نفسه (بفتح النون والفاء) وهذا هو المراد بقوله : ثم أرسلنى .

وبعد أن هدأ روعه ﷺ بعض الشيء ، قال : ما أنا بقارئ والقراءة فى اللغة : هى قراءة الشيء المكتوب ، وهى كذلك تلاوة الشيء المحفوظ ، أو ترديد كلام يلقي عليك . وعلى أى هذه المعانى شئنا يكون قول محمد مطابقاً للموقف ، فقد كان محمد ﷺ أمياً لا يقرأ ، أى أنه لم يكن بقارئ ، وإذا كان المراد هو الترديد فيكون سؤاله ﷺ مطابقاً للموقف كذلك ؛ لأن كل ما أمره به الصوت : اقرأ ، وتكون « ما » هنا للاستفهام لا للنفى .

ثم يعود الصوت فيقول : اقرأ

ويعود الروع فيستولى على محمد ، ويحس وكأنه يختنق ،
أو يظن كأنه الموت ، وهذا معقول في حالة الخوف الشديد .

ويكون النداء ان الأولان تنبيهاً لمحمد حتى يعي ما سيلقى
إليه في النداء الثالث ، وفي النداء الثالث يكون محمد قد ثبت
فواده أكثر مما كان ، فيتلو عليه الصوت الآيات الخمس الأولى
من سورة العلق ، وهي أول ما أنزل من القرآن باتفاق معظم
الآراء ، والبخارى يكتفى بذكر الآيات الأربع الأولى حتى ﴿ الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وغيره يضيف الآية الخامسة ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَم ﴾ ؛ لأنها والآيات الأربع الأولى السابقة عليها تعتبر وحدة
متكاملة من حيث المعنى ، وبعدها تنتقل السورة إلى معنى آخر
يتعلق بفترة أخرى جاءت بعد ذلك .

وقد استعملت هنا لفظ « الصوت » ، والمراد به الملك ، ولكن
محمداً لم يعرف في هذه اللحظة أن الذى خاطبه ملك ، فأثرت أن
أستعمل هذا اللفظ حتى يجيء لفظ الملك فى مكانه .

ونلاحظ أن الحديث لم يذكر أن محمداً ردّد هذه الآيات بعد
الصوت ، إنما يكتفى بقوله : فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف
فواده . أى أن هذه الآيات نقشت فى صدره .

ومن الطبيعي أن يراع محمد روعاً شديداً من هذا الذى حدث له ، ولا بدّ أنه لبث فى الغار بعض الوقت بعد هذا الذى سمع حتى استجمع نفسه ، أو حتى طال الصمت بعد ذلك وأحس محمد أن الصوت لن يقول شيئاً بعد ذلك ؛ ولهذا تأخر فى الخروج من الغار ، ولكن لابد أنه بعد أن خرج منه أسرع إلى بيته « يرجف فؤاده » .

هذا على وجه التحقيق ما حدث فى أصيل ذلك اليوم ، ومحمد وحده فى الغار ، والدنيا من حوله صمت شامل .

وهذا النص الذى أورده البخارى صادق كل الصدق ، كل ما وقع بعده يؤيد صدقه كما سنرى ، وإذا كان لابد أن ينزل وحى على بشر فلا يمكن إلا أن يكون على هذه الصورة ، ولا يمكن أن يكون إحساس محمد إلا هذا الذى قاله ورواه البخارى ، ولا يمكن أن يحدث ما ذكره غير البخارى من الرواة من أن رسول الله كان قبل مشهد الغار يرى ويسمع ، أى : يرى الملاك فى السماء ثم يختفى ، ويسمع صوتاً يخاطبه ويتلفت فلا يرى شيئاً . ومحمد بن إسحاق مخطئٌ عندما روى عن إسناد ضعيف أن محمداً قبل مشهد الغار كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال : « السلام عليك يا رسول الله »

فيلتفت حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجرة والحجارة، فمكث ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله له أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان ، وهذا كلام لا يصح قبل مشهد الغار ، وربما يكون قد حدث بعد ذلك بزمن ، وسنعود إليه في حينه إن شاء الله ، وإذا كان ذلك قد وقع قبل مشهد الغار فلماذا ريع محمد هذا الروع كله ؟

ثم إن هذا الخبر يقول : إن محمداً مكث كذلك (يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث) فاما الذي كان يسمعه فقد عرفناه ، وبقي هذا الذي يقال : إنه كان يراه ، فماذا هو ؟

إن مثل هذه الأخبار أضرت بالسيره ضرراً بليغاً ، فقد فسرها بعض أعداء الإسلام تفسيرات منكرة ، ولكنهم لا يسألون وحدهم عن هذا الكلام الذي ألقى على علأته ، إنما رواتنا أيضاً مسئولون ، وما دام حديث البخارى هذا قائماً بين أيدينا بهذه الأصالة الواضحة فلا معنى للتزويد وإضافة ما لا يصح أو يجوز في حق رسول الله ومبعثه الذي غير تاريخ البشر .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يرد في « السيرة الحلبية » من أن من يسمى بالإمام العدل سليمان التيمي ذكر في (سيره) من أن

السيدة خديجة - رضى الله عنها - عندما قص عليها محمد خبر الغار ركبت إلى بحيرا الراهب فى الشام ، فهذا الخبر غير المعقول جرّ علينا مصائب بلا نهاية ، فقد اعتمد عليه مستشرقون موتورون من أمثال ألويس شيرنجر Alois Sprenger وهنرى لامنس Henari lammens فى القول بأن بحيرا الراهب هذا هو الذى علّم محمداً معظم ما قال ، وبحيرا - بفتح الباء وكسر الحاء - ليس اسماً بل صفة ، فمعناه الراهب أو العالم ، ولم يلق رسول الله بعد البعثة راهباً ولا حبراً ، إنما كان ذلك قبل المبعث بسنوات طويلة ، وكان محمد فى الثامنة أو التاسعة من عمره عندما خرج إلى الشام أول مرة مع عمه أبى طالب ، ولم يكن اسم الراهب بحيرا بل سرجيوس ، وخبره كله مشكوك فيه ، ولكن تأمل الضرر الذى لحق بالسيرة نتيجة لقلّة إدراك مثل هذه الرواية ، وعدم تحرز أصحاب السيرة الحلبية ، وهى على واسع شهرتها لا يعتمد عليها إلا بعد تمحيص بالغ .

وننتقل إلى الفقرتين الرابعة والخامسة من حديث البخارى (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى ، زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروح .

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ،
فقال خديجة : كلاً ، والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ،
وتحمل الكلّ - بفتح الكاف - وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف
وتعين على نوائب الحق) .

وهذا السياق فى رواية الخبر أقرب ما لدينا إلى طبيعة ما
حدث ؛ فإن محمداً بعد أن وقع له ما وقع ولبث فى الغار بريهة
استجمع فيها نفسه - عاد مسرعاً إلى بيته وهو يرجف ، وقد
برد جسمه كله بدليل أنه قال : « زملونى » فلما زملوه بالغطاء
هدأت نفسه وزال روعه ، ثم قص على خديجة ما وقع له .

ولا يتفق مع هذا السياق الأصيل ما يرد فى الحديث الذى
يرويه ابن هشام مسنداً إلى عبد الله بن الزبير ، ونقرأ فيه
« فخرجت (من الغار) حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت
صوتاً من السماء يقول : أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال :
فرفعت رأسى أنظر إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل
صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا
جبريل » وهذا كلام لا يقبل ؛ لأنه لو كان حدث لزال روع محمد
عندما خاطبه الصوت فى الغار وعلم حقيقة الأمر ، فهذا ملك من
السماء يقول له : أنت رسول الله وأنا جبريل ، ففيم الروع
ورجف الفؤاد إذن !

ولكن الصحيح فى مثل هذه الحالة أن يراع محمد ويخشى على نفسه بعد أن وقع له ما وقع فى الغار ، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلى من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد - يعنى نفسه - لشاعر أو مجنون ، لا تحدت بها عنى قريش أبداً ، لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلاطرحنّ نفسى منه ، فلاقتلنها فلاستريحن .. » وهذا الخبر قلق وليس هذا موضعه ، ولكن الذى يهمنى فيه أن محمداً خشى على نفسه أن يكون شاعراً أو مجنوناً ، فأما الشاعر فليس المقصود به الشاعر الذى يقول الكلام الجميل ، إنما المخرف الذى يهذى ، وأما المجنون فمن الطبيعى أن ينفر منه محمد ؛ لأن منظره كان بالفعل رهيباً مخيفاً

ويستوقف انتباهنا فى الفقرة الخامسة أن خديجة - رضى الله عنها - لم تخف ولم ترزع ، أو على الأقل لم يبد عليها روع ولا خوف لعظيم ثققتها فى زوجها محمد ﷺ فقد عرفته دائماً رجلاً راجع العقل ، فاضل النفس ، حسن العشرة ، جميل السمائل ، ومثل هذا الرجل لا يخزيه الله أبداً ، وقولها هذا يدل على أنها بحكم العشرة والإخلاص للزوج ومشاركته فى الإحساس ، كانت حنيفة هى الأخرى تعرف أن للكون خالقاً

واحداً عظيماً ، وهذا الخالق يتجه إليه زوجها بقلبه باحثاً عنه؛ لا يمكن أن يصل إليه الجن ، وهذا هو الذى كان محمد يخافه عندما قال : إنه يخاف أن يكون قد أصبح شاعراً أو مجنوناً ، والمجنون هو الذى تسيطر عليه الجن فى رأى عرب الجاهلية .

ومن هنا فقد أخذت تطمئننه على نفسه وتهدئ من روعه، وكلامها هنا له دلالة كبرى ؛ فقد قالت له : كلاً والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر .

ومعنى ذلك أن محمداً كان بعد زواجه من خديجة رجلاً ذا مال ينفق منه فيما ذكرت خديجة ، ولو كان ينفق ذلك كله من مالها كما يتصور بعض الناس من أن محمداً كان يعيش بعد زواجه من خديجة على مالها لما قالت خديجة له ذلك ، وأين إذن فضله لو كان يقوم بذلك كله من مال زوجته ، وفى هذه الحالة كان من الممكن أن تقول له على سبيل التلطف : إننا نصل الرحم، ونحمل الكل ، ونكسب المعدوم ، ونقري الضيف ، ونعين على نوائب الدهر ، فأما وقد قالت ذلك مخاطبة إياه بشخصه فلا شك فى أن ذلك كله كان من ماله لا من مال خديجة .

وهذا هو الحق الذى يغيب عن الكثيرين من مؤرخينا ، لقد

كان محمد قبل زواجه من خديجة وبعده رجلاً ميسور الحال ،
ورجلاً تاجراً عارفاً بشئون التجارة فقد ذكر ابن كثير في البداية
والنهاية « أن عمرو بن أسد عم خديجة عندما بلغه أن محمداً
يخطب خديجة قال : هذا هو الفحل الذي لا يجده أنفه » ، وقال
البلاذري : إن خديجة عندما وجهت محمداً ﷺ بمالها إلى الشام
عرفت خديجة البركة والنماء في مالها على يده ، فإذا كانت هذه
ثمرة عمله في مال زوجته فلا شك أنه كذلك كان ينمى ماله
وينفق منه في وجوه الخير .

وملاحظة أخرى عن فضل هذه السيدة الجليلة التي وقفت
في هذه المناسبة موقفاً يصعب أن تقفه غيرها ، فقد كانت هي
صاحبة فكرة الاتجاه إلى ورقة بن نوفل لعرض الأمر عليه
لترى ما يقول ، حقاً إن ورقة كان ابن عمها ، ولكنها لا بد كانت
عامة بأن هذا الرجل هو أفضل من يُسأل في مثل هذا الأمر
العظيم ، وبالفعل لم يكن هناك اختيار أصح من ذلك كما
سنرى ، ولا بد كذلك أن خديجة كانت تعرف أن ورقة كان إلى
جانب نصرانيته غير الواضحة حنيفاً يبحث عن ملة إبراهيم أو
الدين القديم كما كان يقال ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن خديجة
كانت حنيفية ، مثلها في ذلك مثل زوجها العظيم ، وهذا هو الذي

ثبت نفسها وهياً لها الظروف لتقوم بدور من أجل ما قام به أحد المسلمين في سبيل نصره الإسلام .

إلى هنا نقف بهذا الفصل من دراستنا للتحوّل العظيم في حياة نبينا - صلوات الله عليه - نقف به هنا بعد مشهد المبعث الذي أصبح به محمد نبياً ، ولكن الأمر لم يتضح له بعد ، فقد كان في أشد حالات الحيرة والقلق ، وسنرى أن ورقة سيظمن الرسول على حاله ويوضح له حقيقة ما يمرّ به من تحوّل هائل، ولكنه في نفس الوقت لم يلبث أن زادت مخاوفه ؛ لأنه إذا كان قد كشف له عن حقيقة الأمر وقال له : إن ما مرّ به مقدمة رسالة إلهية كبرى فلماذا تأخر عليه الوحي بعد ذلك ؟ إننا ندخل الآن فيما يسميه أصحاب السيرة بالفترة أو فترة الوحي ، وكانت من أقسى وأشد ما عرف محمد في حياته ، فقد تزايد قلقه وزادت مخاوفه بسبب تأخر الوحي ، وإذا كنا نعرف أن اصطفاء الله لمحمد ﷺ لحمل الرسالة الكبرى كان نعمة من الله عليه وبركة، فإننا لاننسى ما عاناه في فترة الانتقال هذه من قلق وخوف وحيرة ، حتى لقد همّ بأن يلقي بنفسه من شاهق الجبال ليخلص مما هو فيه .

* * *

﴿ يا أيها المدثر * قم فأندر ﴾

(المدثر : ١ ، ٢)

وقفنا في الفصل الثالث من هذه الفصول التي نكتبها عن مبعث الرسول ﷺ عند حسن استقبال خديجة أم المؤمنين - رضوان الله عليها - لخبر نزول الوحي على محمد ، وما أظهرت من الثقة في زوجها محمد وإيمانها الكامل بكل كلمة قالها ، واجتهادها في تثبيت فؤاده وإدخال الطمأنينة على نفسه في هذا الظرف الذي كان من الطبيعي فيه أن يطيش عقل أية امرأة أخرى لو جاءها زوجها بمثل هذا الخبر ، وغريب من مؤرخينا القدامى أنهم لم يقدرُوا لخديجة هذا الموقف العظيم ، وأغرب منه أن بعضهم يتساءل : من أسلم أولاً : خديجة أم أبو بكر ؟

ويجيب الكثيرون أن أبا بكر أول من أسلم ، مع أن خديجة أسلمت منذ الوهلة الأولى وآمنت بما جاء به محمد ، وسارت معه في الطريق العسير خطوة خطوة حتى عرف وعرفت أن هذا الذي وقع له إنما هو النبوة ثم الرسالة ، وغريب من الدكتور هيكل أن يقول في هذا الموقف : « نام محمد ، وحدقت فيه

خديجة، وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذى سمعت منه ،
فلما رأته استغرق فى نوم مطمئن هادئ ، تركته وخرجت تقلب
هذا الذى هز قلبها وأثار هواجسها ، وتفكر فى الغد ترجوه
خيراً، وترجو أن يكون زوجها نبي هذه الأمة العربية التى
غرقت فى الضلال « إلى آخر هذا الكلام الإنشائى الجميل الذى لا
يؤيده أى سند من التاريخ ، وإذا كان محمد نفسه لم يخطر
بباله إلى ذلك الحين أن يكون نبي هذه الأمة فكيف يخطر هذا
الأمر على بال خديجة ؟ ثم من أين له أن هذا الأمر أثار
هواجسها ؟ وهل حديثها معه كان حديث سيدة انتابتها
الهواجس ؟

نقول هذا لأننا ينبغى أن نكون دقيقين جداً فى كل لفظ
نستخدمه فى تناولنا لسيرة المصطفى - صلوات الله عليه -
ومثل هذه العبارات الإنشائية من شأنها أن تحجب الحقيقة
التاريخية، وتحول بيننا وبين فهم حقائق السيرة المحمدية ،
وهذه الحقائق فى ذاتها أبلغ وأجمل من أسلوب أى أديب ، فما
بالك والأسلوب هنا نقل حَرْفِيٌّ تقريباً عما قاله مستشرق
فرنسى هو أميل درمنجم ؟ !

وقد قرأت فى الجزء الثانى من « تاريخ الإسلام » للحافظ
المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

خبيراً يقول : « وقال موسى بن عقبة فى مغازيه : كان ﷺ فيما بلغنا أول ما رأى أن الله أراه رؤيا فى المنام ، فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة ، فعصمها الله وشرح صدرها بالتصديق .

فقالت : أبشر ! ثم أخبرها أنه رأى بطنه يشق ثم طهر وغسل ، ثم أعيد كما كان . قالت : هذا والله خير ، فأبشر ! » . وهذه العبارة من موسى بن عقبة : « فعصمها الله وشرح صدرها » تؤيد ما قلناه من أن الله - سبحانه - أيد قلب خديجة - رضى الله عنها - بقوة من عنده ، وشرح صدرها ؛ لكى تقوى على مواجهة ما سيمر به زوجها الكريم من تجربة قاسية ومحنة شديدة فى طريقه إلى النبوة فالرسالة .

ولقد تصرفت خديجة فى هذا الموقف أحسن وأعقل تصرف يمكن أن يتصرف به إنسان ، ولو سيدة أخرى مكانها لكان أحسن ما تفعله أمراً من اثنين : إما أن تكتم الخبر وتدع نفسها وزوجها فى حيرة وخوف . وإما أن تذهب إلى عمها مثلاً : عمرو ابن أسد بن عبد العزى ، وهو الذى حضر زواجها من محمد ، وتلقى إليه بالخبر ، وتعلن الجزع والحيرة والخوف ، وتطلب العون .

ولكن خديجة لم تفعل شيئاً من ذلك ، بل حزمت أمرها ،

وذهبت إلى الرجل الوحيد الذي كان من الممكن أن يعينها في هذا الموقف ، وهو ورقة بن نوفل .

فلماذا ورقة بالذات ؟

لقد أوردنا فيما سلف بعض الخبر عن ورقة ، وقلنا : إنه كان ابن عم خديجة ، فأبوه نوفل كان أخاً لخويلد بن أسد بن عبد العزى والد خديجة . وكان أخاً لعمرو الذي زوجها من محمد ، وقد عرفنا أن ورقة كان من الباحثين عن « الدين القديم » وهو ملة إبراهيم ، وهي الحنيفية ، وقلنا : إن الكثيرين من المؤرخين يقولون : إنه كان قد تنصر ، وشكنا في صحة هذا القول .

وفي حديث موسى بن عقبة ، وهو من أعظم شيوخ السيرة الأوائل عن النفر الأربعة الذين كانوا يبحثون عن حقيقة ملة إبراهيم ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل - نجد أنه يعطى زيدا أضعاف ما يعطى ورقة من الأهمية ؛ فزيد عنده كان باحثاً مجتهداً عن الحنيفية ، حتى لقد ساح في الأرض في طلبها ، وفي سياق كلامه نقراً أن نفيلاً والد زيد وجد سعيد الصحابي قال : « خرج أبى (زيد) وورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى

مرا بالشام ، أما ورقة فقد تنصر ، وأما زيد فقيل له : إن الذى تطلبه أمامك ، فانطلق حتى أتى الموصل « ومعنى ذلك أن ورقة حسم الأمر وتنصر ، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فهو الذى لم يقتنع بالنصرانية كما وجد عليها أهل الشام ، فمضى يطلبها فى الموصل . وزيد عند أهل السيرة أكبر مقاماً من ورقة ؛ لأنه كما يقول ابن حزم : « رفض الأوثان فى الجاهلية ، والتزم الحنيفية دين إبراهيم - عليه السلام - وأخبر رسول الله ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » وابنه سعيد كان على شاكلته ، ثم إنه تربطه برسول الله رابطة نسب من ناحية أمه ، فكان لهذا أولى أن يسأل من ورقة الذى يقال إنه قد تنصر ، وإذا كان قد تنصر فعلاً فهو آخر من يسأل فى أمر كهذا الذى كان يعانيه محمد ؛ لأن النصارى جميعاً كانوا يقولون إذ ذاك : إن مجيء عيسى - عليه السلام - هو تحقيق البشارة التى تحدث عنها كلها أنبياء بنى إسرائيل فى العهد القديم ، وليس يسأل نصرانى مثل ورقة فى أمر نبوءة أو بشارة تاتى بعد عيسى بن مريم - عليه السلام - ولكن خديجة - بعصمة الله إياها وانشراح صدرها وفطنتها - اتجهت إلى ورقة بن نوفل دون سواه ؛ لأنها كانت تعرف أنه لم يكن نصرانياً ولا يهودياً إنما كان باحثاً عن ملة إبراهيم ، نعم إنه كان يقرأ كل ما يقع تحت يده من صحف الإنجيل والتوراة .

وكان يجيد العبرانية ، ولكنه لم يكن نصرانياً ، وكان فى ذلك الوقت رجلاً مسناً قد كف بصره ، فهو بعيد عن الغيرة والحسد ، ثم إنه كان رجلاً فاضل النفس ، بعيداً عن خصال الجاهلية ، وكان هو الذى نصح خديجة بأن تتزوج محمداً عندما علم بما كان من أمر إعجاب خديجة به وميلها إلى الزواج منه ، ثم إن كتب السيرة تقول : إن عبد المطلب فقد - ذات مرة - محمداً وهو صبى فى حجره ، وقلق عليه ، فكان الذى وجده ورده إلى جده ورقة . ومن هنا كان اختيار خديجة إياه هو الاختيار الأسلم من كل وجه .

ونعود إلى حديث هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن عائشة - رضى الله عنها ، وهو الذى نلتزمه هنا - فنجد أن الفقرة السادسة منه تقول : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا بن أخى ؛ ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى .
يا ليتنى أكون فيها جذعاً ! ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك !

فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجِيَّ هم ؟

قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ،
وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى . وفتر الوحى «

والجذع : هو الشاب القوى العفى .

وإذن فقد كان ورقة هو أول من طمان محمداً إلى أن الذى
أمره بالقراءة ثم قرأ عليه لم يكن شيطاناً أو جنأ أو روحاً
شريرة ، إنما هو الناموس الذى أنزل على موسى ، وما دام قد
أنزل على موسى فهو خير إن شاء الله .

فما هو هذا الناموس ؟

من بين المعانى الكثيرة التى يذكرها ابن منظور فى لسان
العرب لهذا اللفظ : الناموس ، وعاء العلم . والناموس :
جبريل.. وأهل الكتاب يسمون جبريل - عليه السلام - :
الناموس ، ثم يروى ابن منظور حديث نهاب خديجة مع محمد

ﷺ إلى ورقة مع محمد ، ولكنه يُوردُ إجابةً أخرى ترد في صور من الحديث تختلف عما ذكرنا ، وهي ترد في معظم كتب السيرة إلى جانب روايتنا ، وهي : إن كان ما تقولين حقًا ، فإنه ليأتيه الناموس الذي كان يأتي موسى - عليه السلام - وفي رواية أخرى : إنه ليأتيه الناموس الأكبر .

وإذا كان ورقة نصرانياً فلماذا قال : إن هذا هو الناموس الذي يأتي موسى ؟

وفي رواية أخرى - ضعيفة - لذلك الحديث نجد ورقة يقول : « قدوس ! والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . »

وموضع الضعف في هذه الرواية الثانية أنها تفترض أن محمداً ﷺ لم يكن مع خديجة عندما ذهب إلى ورقة ، وذلك مستبعد ، فما كان محمد ليقعد في بيته ويترك زوجته تستجلى له حقيقة الأمر مع شديد تطلعه إلى هذه الحقيقة ،

ومن الواضح أن « الناموس » الذي يرد ذكره في كلام ورقة لا يمكن أن يكون معناه جبريل أو وعاء العلم . وواضح كذلك أن ورقة لم يقل لفظ « قدوس » الذي يرد في الرواية الثانية للخبر .

وهنا موضع سؤال : إذا كان ورقة نصرانياً ، فلماذا ذكر
الناموس الذى أنزل على موسى ولم يشر إلى شيء أنزل على
عيسى ؟

وقد حاولَ الشيخ أبو زهرة - رحمه الله - وهو من أساتذة
تاريخ الأديان وله فيه كتابان ، واحد يسمى « محاضرات فى
النصرانية » والثانى يسمى « مقارنات الأديان » حاول أن يجيب
عن هذا السؤال فقال : إن الجواب على ذلك أن التوراة كانت فيها
شريعة قائمة عمل بها النبيون من بعد موسى - عليه السلام -
وجاء عيسى لإحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم
يطبقوها لغلظ قلوبهم ، فجاء عيسى لإعلان حقائقها ، وروى
عنه أنه قال : « جئت لإحياء الناموس » ولقد جاء النص فى
كتب النصارى أن يؤخذ بشريعة التوراة ما لم يجئ نص فى
الإنجيل يخالفها .

وهذا كلام فيه ظل من الحقيقة ، ولكنه يدل فى نفس الوقت
على معرفة مباشرة قليلة باليهودية والنصرانية ، وهذا طبيعى
بالنسبة لنطاق دراسات الشيخ أبى زهرة ، فإن معرفة الأديان -
وخاصة اليهودية والنصرانية - فضلاً عن مقارنة الأديان
بعضها ببعض - لا يستقيم إلا باطلاع واسع على الأصول
العبرانية والسريانية أو على الأقل بالدراسات المترامية المدى
التي ألفت فى الغرب فى تاريخ الأديان .

فإن لفظ « الناموس » ليس عبرانيًا ، ولكنه يوناني ، ومن ثم فهو لا يعنى جبريل أو التوراة ، وإنما هو من لفظ Nmos اليوناني، ومعناه القانون أو الكلام الموحى من الله للأنبياء ، واستعمال ورقة له معقول ، فقد كان الرجل يقرأ كل ما يقع في يده من صحف الكتب الدينية ، دون أن يفرق بين ما هو نصراني منها وما هو يهودي ، وكان اللفظ (نوموس) شائع الاستعمال ، وخاصة في كتب الغنوصيين ، وهم فرقة دينية ذاعت في العصور المسيحية الأولى ، وكانت مزاجاً من الأديان السماوية وعقائد الوثنية ، وقد قضت المسيحية على الغنوصية، وخاصة بعد أن حدد بولس المسيحية بالشكل الذي رآه ، وفصلها عن اليهودية وجعلها ديانة قائمة بذاتها تتلخص في أن مجيء عيسى تحقيق للبشريات التي نادى بها أنبياء بني إسرائيل فيما كتبوا بعد التوراة ، وهذه الكتابات هي التي جمعت بعد ذلك في الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم المعروفة بالبنتاتويخ .

وقد أخذ ورقة لفظ الناموس عن الأدب الغنوصي ، وعرف أن المراد به القانون الإلهي أو الشريعة التي أنزلت على موسى ، وكان ينبغى أن يؤيدها الإنجيل الذي أنزل على عيسى ، ولكن نص الإنجيل (ومعناه البشارة) اختفى ، وأطلق اللفظ على

ذكريات بعض الحواريين عن بعض ما قال عيسى وما وقع له ،
وهذه هي الأناجيل المعروفة اليوم ما بين معترف به من
الكنائس وغير معترف به ، وغير المعترف به كثير جداً ، ويطلق
عليها جملة لفظ « أبو كريفا » أى : الزيوف أو الكتب الزائفة .

ومن هنا فقد أصاب ورقة فى قوله : إن هذا هو الناموس
الذى أنزل على موسى ، أى أن ما سمعه محمد ﷺ هو بداية لمثل
الشريعة التى أنزلت على موسى - عليه السلام - وقد أدرك ذلك
محمد ﷺ إدراكاً تاماً ، واطمأنت نفسه ؛ فقد عرف الآن أن ما
سمعه بعيد جداً عن أن يكون شيئاً من الشياطين أو الجن ، إنما
هو شىء سماوى .

ولكن رواتنا لم يدركوا ذلك ؛ ولذلك اختلط عليهم معنى
الناموس ، وقالوا : إنه جبريل ، مع أن ورقة لم يقل - فى حديث
البخارى - إن هذا الناموس هو جبريل ، وكل ما تقوله أوثق
النصوص هو ما ذكره محمد بن إسحاق ورواه الطبرى ، قال :
« فسهل عليه ذلك بعض ما هو فيه من الهم » .

وتضيف هذه الرواية عبارة قصيرة يفهم منها أن ورقة لقي
خديجة بعد ذلك وأعاد عليها تفسيره لما قص عليه محمد فقال
لها : فقولى له فليثبت . وهذه العبارة تشير إلى إسراع محمد

بالانصراف إلى بيته بعد سماع الصوت أول مرة في غار حراء ، وربما كان معناها فليثبت ولا يرع إذا سمع الصوت مرة أخرى . فلن يحدث له إلا خير .

وقد نفعت هذه الكلمات محمداً ، فاطمأن قلبه ، وعرف أن عليه في المرة القادمة أن يثبت ؛ ولهذا كان محمد ﷺ يثنى على ورقة ، فقد روى الترمذى حديثاً حسن الإسناد ينتهى عند أم المؤمنين عائشة قال : سئل النبي عن ورقة . فقالت له خديجة: إنه يا رسول الله كان صدقك ، وإنه مات قبل أن تظهر . فقال : « رأيت في المنام عليه ثياب بيض ، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك » وجاء من مراسيل عروة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت لورقة جنة أو جنتين » والمراسيل هي الأحاديث المرسلة ، أى التى يروىها التابعى عن رسول الله ﷺ ولم يذكر فيها الصحابى ، والجنة هي البستان .

ولكن ورقة إذا كان قد طمأن محمداً ﷺ بكلامه ، فإنه كان سبباً فى قلقه بعد قليل ؛ لأنه توقع أن يأتيه الوحي بعد ذلك ليثبت ويسمع منه ، ولكن الوحي تأخر ، وطال تأخره فترة يختلف فى تقديرها الرواة ما بين ثلاثة أيام وثلاث سنين ، وتقديرها بثلاثة أيام غير مقبول ، لأن الرسول قلق قلقاً شديداً

لفترة الوحي ، أى : فتوره ، أى : عدم عودته ، ولا يصح كذلك القول بأن الفترة كانت ثلاث سنوات ، فما كان الله سبحانه ليجعل الفارق بين الوحي الأول والثانى يطول هذا الزمن كله .

ولدينا أقوال كثيرة عما حدث لمحمد خلال هذه الفترة التي تراوحت ما بين أسبوعين وثلاثة أو شهر على الأكثر ، ولكن أقرب الروايات إلى سياق ما نروى حديث رواه البخارى فى الصحيح ، وأحمد بن حنبل فى مسنده ، يقول : « وقال الزهري عن عروة عن عائشة : وفتّر الوحي فترة حتى حزن رسول الله حزناً شديداً ، وغدا مراراً كى يتردى من شواهد الجبال ، وكلما أوفى بذروة ليلقى نفسه تبدى له جبريل ، فقال له : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك »

وتذهب بعض الروايات إلى أن محمداً ﷺ عاد إلى الغار لينتظر عودة الوحي فيه ، ولكن الوحي لم يعد ، وهذا أمر غير مستبعد ، ولكن حديث البخارى وأحمد بن حنبل الذى روياه الآن أوجز الكلام إيجازاً شديداً ، فلا يمكن أن يكون محمد قد ضاقت به نفسه خلال الأيام الأولى حتى فكر فى أن يلقي بنفسه من شاهق الجبال ؛ ليخلص من القلق الذى كان يعانى منه ، أو

ليخلص من الخوف من أن يصيبه شيء يكرهه مثل الجنون .
والأرجح أن ذلك الضيق انتابه عندما طالت فترة الوحي
أسبوعين أو ثلاثة مثلاً .

وقد كانت تلك الفترة من أشق ما مر برسول الله ﷺ فإن
ورقة مات بعد أن بشر رسول الله بقليل . وظل محمد بعد ذلك
قلقاً خائفاً حتى فكر في الخلاص من الحياة . وينبغي أن نلاحظ
أن محمداً لم يعرف أن الذى كلمه أول مرة كان جبريل ، إنما هو
كان يعرف - كما قال له ورقة - أنه صوت خير من السماء ،
وهذا كان من أكبر أسباب خوفه عندما طالت فترة الوحي عنه .
ونحسب أن الوحي فتر تماماً خلال الأيام الأولى التى تلت
الوحي الأول ، فلما طالت وازدادت مخاوف الرسول بدأ الصوت
يطمئنئه قائلاً: إنك رسول الله حقاً ، كما رأينا فى حديث الزهري
عن عروة عن عائشة ، وذلك كان رحمة من الله به ؛ حتى يكون
على الأهبة عندما يعود إليه الوحي بآيات أخرى من القرآن .

ونفترض أن الصوت زاد فيما كان يلقي عليه من الكلام
ليسكن به فؤاده ، وهنا موضع الكلام الكثير الذى تفيض به
كتب السيرة ، وخاصة ابن هشام الذى يقول : إن رسول الله
سمع صوتاً يناديه من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله
وأنا جبريل ، قال (يعنى رسول الله) : فرفعت رأسى إلى

السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .. إلى آخر هذا الطراز من الروايات .

وقد انتهت « الفترة » نهاية منطقية ، فبعد الخوف والقلق والحيرة بل اليأس تجيء بشائر الفرج فى صورة هذه النداءات القصيرة من الصوت مخاطبة محمداً ومعلنة أنه نبي ؛ ليسكن فؤاده ، ثم تجيء البشرى السعيدة بعد ذلك بالإفصاح الواضح عن طبيعة الصوت وما يريد أن يقوله لمحمد ، وقد أتانا البلاذرى فى « أنساب الأشراف » بخبر يرويه عن أبى الحارث ، شريح بن يونس ، عن سفيان الثورى ، عن معمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزهري قال : « فتر الوحي عن النبي ﷺ ، وكان أول ما أنزل عليه : « اقرأ باسم ربك الذى .. » إلى قوله : « ما لم يعلم » فلما فتر حزن حزناً شديداً حتى جعل يأتى رءوس الجبال مراراً ، فكلما أوفى على ذروة جبل بدا له جبريل - عليه السلام - فيقول : إنك نبي ، فيسكن لذلك جأشه ، وترجع إليه نفسه ، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك ، قال : بينا أنا أمشى يوماً إذ رأيت الملك الذى كان يأتى بحراء ، بين السماء والأرض فجثيت منه رعباً ، فرجعت إلى خديجة فقلت : دثرونى . قالت خديجة : فدثرناه . فانزل الله عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ (المدثر:١).

وقد ورد هذا الخبر في صور شتى من طرق أخرى ، معظمها يقول مثلاً : إن الملك بدا له على كرسى بين السماء والأرض ، أو إن الملك قال له : أنت رسول الله ، ولكن رواية البلاذري أقرب إلى السياق : فإن محمداً قبل « المدثر » كان نبياً ، وبعدها أصبح نبياً رسولاً ، أى أن المدثر تعنى المرحلة الأخيرة فى ذلك التطور الطويل الذى مر به محمد فى انتقاله من بشر إلى نبي ، ثم إلى بشر نبي رسول .

فقد بدا الملك أخيراً لمحمد ، فريع روعاً شديداً حتى جثا على الأرض ، ثم نهض وأسرع إلى بيته وطلب أن يدثروه ، ففعلوا ، فلما سكن جأشه سمع الصوت يخاطبه ، وقد اعتاد محمد صوته وعرفه ، ويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْبِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .
(المدثر : ١-٧)

وتلك هى الآيات السبع القصار فى أول سورة المدثر ، وهى الرابعة والسبعون من سور القرآن .

سمعها محمد صاحبنا وفهمها واعياً صاحبياً كما وعى «اقرأ» وما تلاها صاحبياً متنبهاً ، وأحس أن تلك الكلمات لا يمكن أن

تصدر إليه إلا من السماء ، ففيها خطاب له بقولها : ﴿ يَا أَيُّهَا
الْمُدْكِرُ ﴾ وكان هو متدثراً ، وفيها أمر له بأن يقوم فينذر ، أى
يبلغ الناس هذه الرسالة وما يتلوها ، ويكبر ربه ، ويظهر
ثيابه، ويترك كل ما لا يرضى الله ، ولا يمتن على الناس بما
أسبغ الله عليه من فضل اصطفاء الله إياه ، وتكليفه بالرسالة،
ويصبر على ما سيكلفه الله إياه من أمر عظيم .

وإذن فقد أصبح محمد بشراً نبياً رسولاً ، وحمى الوحي بعد
ذلك وتتابع كما يقول أصحاب السيرة ، وشرع محمد فى أداء
رسالته الكبرى بشراً إنساناً كاملاً ، ورسولاً هادياً .

كانت رحلة طويلة عسيرة كل العسر على هذا الرجل الأسمى
الذى اصطفاه الله ، ثم « فجاء الحق » كما تقول بعض روايات
حديث عائشة الذى بدأنا به هذا الحديث بدلاً من « حتى جاءه
الحق » وخلال هذه الرحلة القاسية عانى محمد ما عانى ، ولكن
الله ثبت فؤاده ، وأخرجه من المحنة برحمته جل وعلا .

وخير ما نختم به هذه الأحاديث ذلك الحديث الذى يرويه
ابن هشام دون سند : أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله
ﷺ ، فقال : أقرئ خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ :
« يا خديجة : هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة :
الله السلام، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام . »